وعذوبةُ الماء الفرات. وطالما حدّثتُ أطفالي عنه فأحبوه كما أحببته. ولكني لا أذكر اسمه. أسعفيني يا ذاكرتي المرهقة، أنجديني يا لغتي المتعبة؛ أسعفيني باسم واحد، وأنجديني بلفظ مفرد. ولكنْ بعد أن أخفقتُ في تذكّر اسمه قلتُ في نفسي: «ليس المهم هو الاسم بل المسمّى، وليس الأصل هو اللفظ بل الذات. ليكن اسمُهُ ما يكون، فالرجل ذاته في محنةٍ اليوم». وظل سؤال محيِّرٌ يَجْلدني: «لماذا يقيِّدون يدَيْ هذا الرجل بالأصفاد؟ وإلى أين يقتادونه، يا تُرى؟».

*

وبعد هنيهةٍ دنوا من الشاطئ وخاضت أرجلهم في الماء، وتقدّموا خطواتٍ، ثم أوقفوه أمامهم. حدّقوا في وجهه، والحقدُ ينقدح من عيونهم الخُزْر. وَضَعَ أحدُهُم يديْه بعنف على فكّي الرجل مرغماً إياه على فتح فمه، وسحب الثاني شيئاً لم أتبينه من الفم الفاغر، واستلّ الثالثُ خنجراً فقطع ذلك الشيء ورمى به في الماء. ورأيتُ بعينيَّ خيطاً أحمرَ يمتدّ من بقعة الماء تلك حتى الأفق ليلتحم بأشلاء الشمس المبعثرة هناك ويرتفع إلى عنان السماء كنافورة دم. ثم أخذ الرجالُ الثلاثة يطأطئون رأسَ الرجل الأسير، دافعين به إلى الماء في محاولةٍ ظاهرةٍ لإغراقه. أما هو فقد كان يقاوم بصلابة، رافعاً رأسَه بين الفينة والفينة إلى السماء وإلى الخلف. وفي أثناء ذلك وقع نظرُهُ عليّ من بعيد، أو هكذا خُيّل إليّ. خُيّل إليّ أنّ عينيه تستنجدان بي، تحثّانني على أن أتحرك، أن أصرخ بوجوههم، أن أفعل شيئاً، أن أنادي على الفلاحين في الحقول القريبة، أن أستغيث بالعمّال في مصانع المدينة، أن أفعل أيَّ شيء لإنقاذه، لا بدافع الشفقة عليه، بل بما يحتّمه عليّ الواجبُ الإنساني، وما يمليه حبُّهُ عليّ.

بيد أني بقيتُ جامداً في مكاني، فقد أخذ الخوفُ يتسرب إلى مسامات جلدي ويتخللها، فأشعر بارتعاشة تسري فيه وتدبّ منه إلى أوردتي وشراييني، فتسود برودةٌ لاسعة فيها، ويتجمد الدمُ بداخلها، ويتصبب العَرَقُ من جبيني المحموم. وانتابني الذهول وأنا غارق في طوفان من الهواجس والوساوس. فكّرتُ في أن أجري نحوهم، أن أهجم عليهم. ولكنني لم أتحرك قط : لم أرفع رأسي، ولم أفتح فمي، ولم أمدّ يدي، ولم أحرّك قدمي. فقد خطر في مخيلتي أنّ إقدامي على شيء من ذلك سيُودي بحياتي حتماً، وأعود ـ لو عدتُ ـ هذا المساء إلى أطفالي محمولاً على نعش بدلاً من أن أحمل إليهم بشارةَ حصولي على عمل. سأمسي كَمَنْ خَرَجَ في البادية يصطاد طعاماً لأهله الذين يتضوّرون جوعاً، فاصطاده الأسدُ. وبشيء من المرارة والخجل، اعترفتُ في دخيلتي أنني لست صِدامياً بطبعي. وأطلّتْ عليّ من كوى ذاكرتي المظلمةِ المنسيةِ صورتي في طفولتي، ورفاقي التلاميذ يتبارون ويتصارعون، في حين كنتُ أنتحي جانباً لأقرأ في كتاب.

إذن سأغضّ طرفي، سأشيح بوجهي عن البحر، سأتظاهر بأنني لم أر شيئاً، سأقْنع نفسي بأنّ ما شاهدته لا يعدو أن يكون ضرباً من الهلوسة أو نوعاً من زوغان البصر. ولكنْ، ماذا سأروي لأبنائي بعد اليوم؟ هل أقول لهم إنني فضّلتُ سلامةَ العودة إليهم، على المغامرة بحياتي من أجل إنقاذِ مَنْ أحببتُه وأحبوه، وما زلتُ أحبه ويحبونه؟ هل أستطيع أن أبرِّر أمامهم تخاذلي وجبني؟ وحتى إنْ أخفيتُ الحادثَ عنهم وغلّفْتُه بالصمت والكتمان، فهل يعني ذلك أنّ ما وقع لم يقع؟ ليس في مقدورنا مسخُ الحقائق بأفواهنا، أو تحويرُها بأقلامنا. حتى وإنْ لم يطّلع امرؤ على جبني وهزيمتي، فإنني سأعيش رجلاً منكسراً في داخلي مثلَ نخلةٍ أصابت جذعَها طعنةُ فأسٍ قاصمة. سيلاحقني مشهدُ ذلك الرجل الأسير كظلّي حيثما حللتُ وأنّى توجهتُ. سيؤرّقني ضعفي وجبني، ولن أنسجم بعد اليوم مع ذاتي التي ستتآكل من الداخل وتنهار. إنني بهزيمتي هذه سأنسف ما بقي من قناطر تصلني بنفسي، وسأدمِّر ما ظلّ من جسورٍ تربطني مع أبناء بلدتي ممن يثقون بي ويشاركونني حبَّ ذلك الرجل.

وقلتُ في نفسي: «ما دمت أحبُ هذا الرجل فلا بد أن أفعل شيئاً لنجدته. يجب أن أتحرك الآن قبل أن ينقضّوا عليه». ولكنْ... بدلاً من أن أتقدم الى الأمام وجدتُني مرتجفاً أجرُّ رجليَّ الكسيحتين الى الوراء مبتعداً. وغاب عني، وأنا في دوامة الخوف، أنني أنا الآخر أقترف جريمةً موصوفةً أركانُها في جميع القوانين الجنائية، هي جريمةُ الامتناع عن تقديم المساعدة إلى إنسان يتعرض للخطر.

الرباط (العراق)

اختفت زوجتي عقب ظهورها في برنامج تلفزي شهير. «اختفت» فقط. كلمة واحدة، هي كلّ ما ترثه اللغة عن الاختفاء. كلمة واحدة لا يمكن حصرُ نظائرها في اللّغة، كـ «نامت» و«سافرت» أو «جاءت». ولا غرابة في هذا؛ فكثيراً ما يختفي الناس هنا، هكذا في لحظة ما، دون أن يتركوا وراءهم أيّ أثر، ودون أن يتركوا أيّ فرصة لانتشار الكلمات وتكاثرها. يختفون كما ينامون ويصحون، يختفون ولا يتركون خلفهم سوى كلمة وحيدة، هي «اختفوا». كما لو أنّ باقي الكلمات تختفي باختفائهم، أو كما لو كانوا يختفون كي تختفي الكلمات نفسها، لأننا نقول، قبل اختفائهم، كثيراً من الكلمات عنهم ولهم. فمثلاً، نقول عنهم: «أقبلوا»، «ذهبوا إلى عملهم»، «تزوجوا» ثم «ماتوا». ونقول لهم: «تفضلوا»، «لا تزعجونا» ثم «تناسلوا» أو «ننتظركم هذا المساء». وحينما يختفون، نقول «اختفوا»، نخلد الى الصمت، ولا نعود نذكرهم أبداً.

غير أنّ اختفاء زوجتي أطلق حبلَ الكلام الطويل والعشوائي. فبرزتْ كلمة «اختفتْ»، وللمرّة الأولى، وكأنّها كلمة البدء في الأرض، الكلمةُ الأولى التي حبلتْ باللّغة، ثم وضعتها على سكة الألسنة، الكلمةُ التي أعادت الاختفاء الى رحاب الكلام.

قلتُ إنّ اختفاء زوجتي حَدَثَ مباشرةً بعد ظهورها في برنامج تلفزي شهير. لكنني لستُ متأكداً ممّا لو كنت قد قلتُ أشياء أخرى قبل ذلك. مَنْ يدري؟! لستُ متأكداً من أيّ شيء. أذكر البرنامج التلفزي، ثم ينسحب كل شيء الى جهة مظلمة، مقفرة، خالية من الكلام. وبعد ذلك، تنبثق فجأةً كلمة «اختفاء» بين شفتيّ، تجرّ خلفها جيوش الحروف القارضة.

وقبل ذلك، ربما كان عليّ أن أقول، ظهر وجه زوجتي في البرنامج، كَتَصْحيفٍ مهمل لوجه جدّي. الأنف الصقري نفسه، يلامس ـ بالفجور ذاته ـ القشرةَ الخضراء الآخذة في التعفن، لثؤلول منغرس في ظاهر الشفة العليا. العينان الوسيعتان نفسهما، تفترسان، وبالشهوة الضارية نفسها، مرئياتهما. واللّسان الغليظ نفسه يُرطّب سافل بطن الشفة السفلى. الصرامة نفسها، والبروز المربك للجبين نفسه. بل الصوت العميق نفسه الذي يشبه الأثر الذي يتركه السَّيرُ في مياهٍ مرسومة.

قد لا تكون الجملة الأولى، إذن، مطابقة تماماً لما حدث بالفعل. أو هذا هو، على الأقل، ما أحس به. فضلاً عن أنني أؤمن أنْ لا أحد يستطيع أن يهتدي في كلّ تجربة إلى الجملة الأولى، التي ستتطابق تماماً مع حدثٍ أو شعورٍ مّا ينوي أن يجعله محوراً لكتابة قصة، بسبب الالتباس الذي ينجم عن الولاء للضمائر. إذ في حالتي هاته، قد يُفهم اختفاءُ زوجتي على ضوء ما يجري في مناطق أخرى من العالم. كأن يكون اختفاءً لأسباب سياسية، فيكون اختيارُ ضمير المتكلم محدِّداً لموقفي ووضعي، كزوج لضحيةِ قمعٍ سياسي.. وهو أمر غير صحيح، لأنّ الاختفاء السياسي اختفى من هنا باختفاء جدّي. أو يكون اختفاءً لأسباب عاطفية، كأن تكون قد اختفت مع عشيق لها... وهو غير صحيح بدوره، لأنّ الجميع هنا يتعايشون دون مشاكل: عشّاقاً وزوجات وأزواجاً وعشيقات، وتحت سقف واحد في أغلب الأحيان؛ بل إنّ الزواج هنا ليس سوى الصيغة القانونية لتدبير اثنين لشؤونهما المعيشية.

من المرجّح، إذن، أنه كان عليّ أن أبدأ بالحديث عن هذا الشّبَه الغريب والمنحرف بين وجه امرأتي، كما ظهر في البرنامج، ووجه جدّي... أو أبدأ من اللحظات القصيرة التي سبقتْ عرض البرنامج. فتصير البداية كالتالي:

لم يكن قد مرّ على عودتي الى المنزل وقتٌ طويل. ساعة، أو أقلّ قليلاً. انشغلتُ خلالها بتفريغ الأكياس البلاستيكية، التي عدتُ بها من السوق الأسبوعي، من محتوياتها: الطماطم في مكانها في الثلاجة، البطاطس في صندوق معرَّضٍ للهواء، الجزر تحت تمثال الأرنب الفضي، اللحم والسمك ومشتريات أخرى في الحوض المليء بقطع الثلج، البيرة أمامي على الطاولة. انتهيتُ من التفريغ في دقائق معدودة. وشرعتُ في قراءة صحف اللّيل. انشغلتُ لبعض الوقت بنقل أخبار الاختفاء في العالم، على قصاصاتٍ ورقيّةٍ صغيرة، وبذلتُ جهداً مضنياً في ترتيبها، وفق مسطرةٍ تصنيفيةٍ واضحةٍ وبسيطة. ابتدأتُ أوّلاً ببؤر التوتر الكبرى، ومنها اخترتُ أكثرها أهميةً، بالنسبة إلى المستقبل الأمني للعالم، ورُحْتُ أسجِّل بالحبر الأحمر الاختفاءاتِ الكبرى: اختفاءَ سبعةٍ من رجال الدين الكاثوليكيين في الجزائر... اختفاءَ فرقة مسرحية في جنوب لبنان... وفي صعيد مصر، فضلّتُ أن يتعلق الاختفاءُ بعربة مسلحة. أي، وبكلمة واحدة، ابتدأتُ بالاختفاءات المرتبطة بنزاعاتٍ مسلّحة أو سياسية. ثم انتقلتُ الى عالم نجوم السينما والغناء والرياضة، ولم تسجِّل الصحفُ في هذا الباب سوى حالات قليلة. ثم سجّلتُ حالة أو حالتين من الاختفاء بسبب اللّون والمظهر. وعَرَّجْتُ على ركن الاختفاء بسبب الحبّ.

بمرور ساعةٍ واحدةٍ كان قد تجمّع لدي عددٌ كافٍ من القصاصات، لكي أشرع في تحديد الاتجاهات العامة للاختفاءات، مكتفياً في البداية بوضع خطوطٍ ودوائرَ باللّون الأخضر حول ما بدا لي حينها استثنائياً، ومتطلّعاً بين حين وآخر إلى جهاز التلفزيون الذي كان يبثّ فيلماً وثائقياً عن السلاحف، ثم موزِّعاً القصاصات بين عشرات الملفات الملونة التي كانت مبعثرةً فوق رفٍّ كنتُ قد كتبتُ على جانبٍ منه، في سنوات الحماس الأولى: «أرشيف القرن»، وهي الجملة التي عوّضتْ جملةً أخرى كنتُ قد كتبتُها في وقت سابق: «مدوّنة العودة».

وقبل عرض البرنامج بدقائق، جاء مَنْ يريد إخباري أنّ زوجتي ستختفي. كان رجلاً لطيفاً، من ذلك الصّنف من الرّجال الذي يظهر ـ عادةً ـ عقب ظهورِ عطورٍ وربطاتِ عنقٍ جديدة، يُوزِّع بعنايةٍ شعره الرماديَّ القليلَ على جوانب رأسه. كان ربعةً مفتول العضلات، تستقر في أعماق عينه

اليسرى آثارُ كسلٍ حيويّ. وعلى نحوٍ غامض، قدّرتُ أنّ بذلته الثمينة، ولهجتَهُ الشمالية النحاسية، وشبَهَهُ الغريبَ بجدّي، علاماتٌ مضيئة على دربِ فكّ ألغاز الاختفاء. وبدا لي أنّ الجملة الوحيدة التي يتوجب عليه أن يتفوّهَ بها هي: «شأنك الآن أن توقّعَ صكّ الاختفاء، وأن تمهره بخاتم جدّك». ولا بدّ أنه سيشرع، بعد ذلك، في تلاوة بيان الاختفاء.

لكنْ سرعان ما خاب توقعي، حين انخرط الرّجلُ في نشيجٍ يصعب وصفه، ملوِّحاً بقبضتيه في المساحة المحسوبة بيننا، منادياً أسماء كثيرةً، لم أستطع أن أتعرف على أصحابها؛ فيما كانت شعلةٌ مهذبةٌ تترقرق في أعماق عينيه، وصمغٌ أصفر، ينفجر من بثور رصاصية آخذةٍ في الانتشار على عرض لسانه، قبل أن يتراجع خطوتين الى الوراء، ليندفع إلى الأمام، نحو عمق الصالة، حيث كان عليه أن يأخذ مكانه، في صورةٍ عائليّة تشغل مساحةً كبيرةً من الجدار المقابل للباب - بين جدّي وزوجتي.

تطوان

أوراق شجر مبعثرة

مجدي القوصي

بداية : بعد يوم واحد من وصولي نجحتُ في الحصول على أُولى أوراقي. كانت مفيدةً للغاية، عرفتُ عن طريقها اسمي المختارَ كاملاً، وعرفتُ اسمَ البلد الذي جئتُ إليه وأصبحتُ منه، وعرفتُ اسم اليوم الذي سأتعبد فيه إلى ربي جماعةً. ما لم أستطع معرفته أو الوصولَ إليه هو تفاصيل ما سوف يحدث لي وما سيصير اليه أمري.

حماية : أكثر من مرة فعلوها بي، مرةً في الفم ومراتٍ في الأليةِ، ثلاثي وثنائي شلل وسلّ، حصبة وسحائي. يقولون على ظهر الشهادة إنّ التطعيم أمان وحماية، وإنّ مَنْ يُطعَّم ضد مرض ما لن يصاب به أبداً. تساءلتُ في براءةٍ لم أكن أعرف أنها تناسب سنّي الصغير، عن الأمصال المضادة للفقر والحاجة والضعف والخوف وما شابه.

ربايـة: في المدرسة روّضوني وأدّبوني وأطعموني وضربوني وألعبوني وأعطوني في نهاية كل عام شهادةً نظيفةً خاليةً من الدوائر الملونة. حاولتُ في نهاية كلّ عام فهمَ العلاقة بين ما مَرَّ وما سوف يمرّ، ولم أفهم. افترضتُ حسن النية، وتعلّلتُ بصغر السن، وتذرّعتُ حتى النهاية بالصبر والحِلْم.

حب : عندما استلمتُ خطابها ولم أستطع تجاهل المعاني الكامنة وراء لون الورق الورديّ ورائحةِ العطر الفوّاحة، حدّثتني عن الحب والهيام والود والغرام والقمر والليل والشعر والجمال والسهر والسمر والشفق والغسق والغروب والشروق، وكيف أنها لن تستطيع الزواج مني لأني لا أملك شيئاً سوى حبي.

جد : أصرّوا أنْ وأصررت ألاّ، أصروا وأصررتُ، أصروا وجلستُ أضع توقيعي على وثيقةِ الاستسلام. مرّتْ أمام عيني ستائرُها الحديديةُ وأثاثُها المنمّقُ وملابسُها الموشّاة. ثم مرَّ منزلي الذي صار أيضاً منزلها، وحياتي التي أصبحت أيضاً حياتَها، وتذكرتُ اقتحامها الأنثويّ لي ولكياني، واختراقَها الكامل لكل دفاعاتي. حاولتُ ألاّ، وأصروا أن... وكان أن...

كد : أوراق السفر، إنْ عاجلاً أو آجلاً، كان عليّ إعدادُها، وكأنّي لكي أستمر كان عليّ أن أفرّ. أعدتُ الكشف عن الأوراق: جواز السفر، وكان هناك جواز لعدم السفر، تأشيرة الدخول، وتأشير الخروج، وتأشيرة ما بينهما... تذكرة الطائرة، أتذكرها ومن قال إنّي سأنساها؟ حذّرني البعضُ، وخدّرني البعضُ، وكدتُ في آخر لحظة... وكانت الحرارة يوم وصولي ٤٥ درجة مئوية.

الغول : قال الطبيب وهو يمدّ يده بالوصفة الطبية: «نعم، أؤكد لك أنه حتى الآن لم يتم اكتشاف دواء ضد الجهل والفقر والخبث وكل ما تقول. اهتم بنفسك الآن ولا تنس الدواء؛ إنّ حرارتك مرتفعة للغاية فلا تُهْمِل». خرج الرجل دون أن ينظر وراءه، فيما أخذتُ أُنزل ملابسي ليبين لحمي استعداداً للحقنة القادمة.

العنقاء : وجدتُها بالصدفة وأنا أبحث وسط أوراقي، صغيرةً، مصفرة. وفي أحد أركانها انثناء. لم أكن قد رأيتُها من قبل. دققتُ النظر فيها، فيما أخذتْ حدقتا عينيّ تتسعان. كان الاسمُ المدوَّن فيها اسمي، وكان اليوم المدون فيها اليومَ، وكانت ساعةُ الوفاة الساعةَ، ساعتي. قرأتُ الورقة عدة مرات ثم وضعتُها جانباً. وبالفعل، لم أخيِّب أيَّ ظنون.

الخـــل الوفـي : بعد تخرّجي من الدنيا مباشرةً وصلتْ إليّ ورقةٌ من جهةٍ لا أعرفها بالضبط، تقول كلماتها: «نشهد أنّ المتخرج المدوَّن اسمُه كان ولم يعد الآن. وهذه شهادة بذلك، وإنْ كنّا نقدِّمها دون أية مسؤولية علينا».

القاهرة